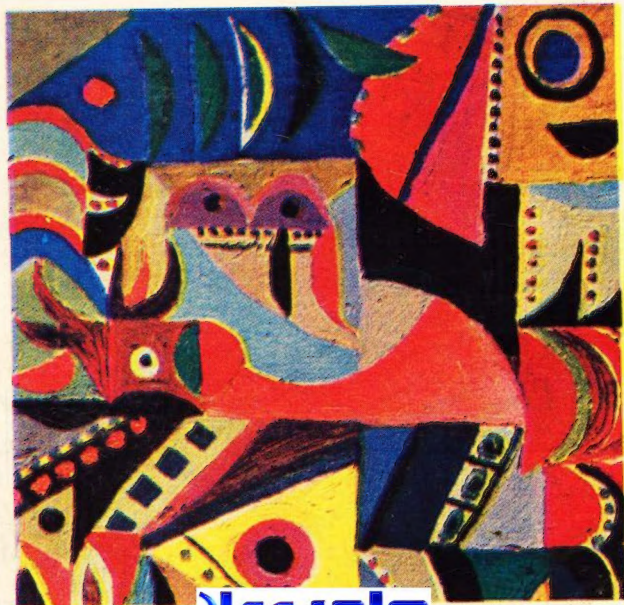


تراث الإنسانية

# مخطط تاريخي لتقدم العقل البشرى

لكوندرسيه

د. السيد محمد بدوى



علي مولا



الهيئة  
المصرية  
العامة  
للكتاب

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥



١٠٩٥٩١

مخطط تاريخي لتقدم العقل



**مخطط تاريخي لتقدم  
العقل البشري  
لكواندرسيه**

**د . السيد محمد بدوي**



مهرجان القراءة للجميع ٩٥  
مكتبة الأسرة  
برعاية السيدة سوزان مبارك  
(تراث الإنسانية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلي

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الانجاز الطباعي والفني  
محمود الهندي

المشرف العام  
د. سمير سرحان

# مخطط تاريخى لتقدم العقل البشرى

لكواندرسيه

د . السيد محمد بدوى

تقول مدام دى لسبيناس فى تصويرها لصفات كوفدورسيه انه « واضح ودقيق ، عادل ومتسامح ، يجمع بين سهولة التعبير ورشاقة الأسلوب عند « فولتير » ، وبين لذاعة « فوتنيل » ، وعمق « نيوتن » . ويضيف الى معارفه الواسعة الاستنارة والذوق الجميل ، واذا تحدثت اليه ، أو قرأت ما يكتبه ، أو ناقشته فى الفلسفة ، أو الأدب أو العلوم ، أو الفنون ، أو نظم الحكم ، أو التشريع ، لقلت لنفسك مائة مرة انك أمام عبقرية قل أن وجود الزمان بمثلها . فهو لا يجهل شيئا حتى التفاصيل التى قد لا تتفق مع ذوقه أو مع شواغله . وتساعده على ذلك ذاكرة عجيبة تملئ كل شئ ولا تنسى شيئا قط . »

يتضح لنا صدق هذا الوصف ، وعدم غلوه ، حين نتصفح المجلدات التى تحتوى على المؤلفات الكاملة لكوندورسيه . ونجد أن « دالمبير » كان على حق حين عهد ،

فى وصيته ، بتكملة مشروع « الانسكلوبيديا » الى هذا العقل « الانسكلوبيدى » اذ تشهد سلسلة مؤلفاته الطويلة أنه ما من مسألة من المسائل التى شغلت عصره الا وكان له فيها رأى .

## حياته :

ولد جان أنطوان نيكولا ( ماركى دى كوندورسيه ) فى ١٧ سبتمبر عام ١٧٤٣ م ، وفقد والده وهو فى سن الرابعة ، فتقاسمت أمه عبء تربيته مع خاله ، ونشأه تنشئة دينية خالصة ، وعند بلوغه الحادية عشرة عهدا به الى أحد الآباء اليسوعيين . وفى عام ١٧٥٨ التحق بكلية « نافار Navarre » حيث تفوق فى حل المعادلات الصعبة ، مما جعله يكرس جهوده لدراسة العلوم ، وبخاصة العلوم الرياضية .

ولم يكن عمره قد تجاوز الثانية والعشرين حين تقدم الى أكاديمية العلوم بأول دراسة له فى الرياضيات عن « حساب التكامل » . وفتح بهذه الدراسة مجالات جديدة ساعدت هذا الفرع من العلوم الرياضية على بلوغ الكمال . وهياته دراسته وأبحاثه لأن يصبح عضوا فى أكاديمية العلوم فى عام ١٧٦٨ . ولكن أسرته طلبت اليه ألا يتقدم لهذا المنصب العلمى لأنها كانت تعد الانشغال بالعلوم مما لا يليق بأسرة نبيلة . وكانت تفضل له أن



يصبح قائدا في سلاح الفرسان • ولكنه لم يرضخ لرغبة أسرته الا عاما واحدا ، وفي العام التالي تقدم لهذا المنصب ، وانتخب بالاجماع •

ويتميز عام ١٧٧٠ بلقائه مع فولتير حيث ذهب اليه في صحبة « دالمير » وقد أثرت هذه الزيارة في نشاطه العلمي الذي أصبح بعدها لا يقتصر على مجال الرياضيات، بل تعداه الى مجالات السياسة والاجتماع والفلسفة كما أثرت صداقته « لتورجو » Turgot في توجيه بعض اهتماماته الى مسائل الاقتصاد الاجتماعي • وعندما أصبح تورجو وزيرا للمالية عهد الى صديقه « بمراقبة النقد » • وهاجم كوندورسيه سياسة نيكر Necker الاقتصادية الى حد أنه ترك وظيفته عندما أصبح « نيكر » وزيرا •

ولم يكن اهتمامه بالمسائل الاقتصادية والمالية يشغله عن متابعة البحث والكتابة في الفلسفة ، فاعد بحثا عن « تمجيد بسكال » ، واهتم باعداد طبعة جديدة لمؤلفه الخالد « الأفكار » Les pensées وفي هذا البحث لم يخش كوندورسيه من أن ينقد بسكال لعدم اهتمامه بعلوم التاريخ الطبيعي ، وأثار هذا النقد بعض السخط عليه في الأوساط العلمية ، بل انه كان من أسباب تعطيل انتخابه عضوا في الاكاديمية الفرنسية • ولم يكن فولتير من أنصار هذا التعطيل بل ثار عليه وكتب الى كوندورسيه في عام ١٧٧٦ يقول : « أكرر لك أنك اذا لم تشرفنا بأن

تصبح عضوا معنا هذا العام فاني سأخرج لأقضى بقية حياتي عضوا في أكاديمية برلين أو بطرسبرج ، ومع ذلك فان كوندورسيه لم يتقدم لعضوية الأكاديمية الا في عام ١٧٨٢ ، ولم يفز على منافسه « بايلى Baily » الا بصوت واحد . وكان البحث الذي ألقاه عند استقباله بالأكاديمية عن « المزايا التي يجنيها المجتمع من اتحاد العلوم الطبيعية مع العلوم الأخلاقية » (١) .

وفي عام ١٧٨٦ تزوج كوندورسيه ، وكانت سنه حينذاك ثلاثا وأربعين سنة ، وفي خلال السنة نفسها نشر مؤلفه عن « حياة تورجو » الذي عبر فيه عن آرائه الأساسية في السياسة ، وهاجم فيه بلا هوادة امتيازات النبلاء ( بالرغم من أنه كان بحسب مولده واحد منهم ) . واتضح منذ ذلك الحين أنه أخذ يعد نفسه للحياة العامة . وكانت أول الوظائف السياسية التي تقلدها عضوية بلدية باريس . ومن هذا المنصب تولى كتابة احتجاج أهل باريس ضد القانون الذي أصدرته الهيئة التأسيسية للدستور الذي كان يرتب حقوق المواطن السياسية على أساس ما يدفعه من الضرائب .

وفي عام ١٧٩١ رشح نفسه لعضوية الجمعية التشريعية وفاز بها ، وانتخب أولا سكرتير الجمعية

---

Des Avantages que la Société peut retirer de la (١)  
réunion des sciences physiques aux sciences morales.

ثم رئيسا لها ، وكان من أول المهام التى قام بها الغاء قانون امتيازات النبلاء ، ثم كرس جزءا كبيرا من وقته لتنظيم التعليم العام .

وأصبح عضوا فى لجنة دستور الثورة الفرنسية فى ١١ أكتوبر ١٧٩٢ . وعهد اليه ، مع بعض زملائه ، ببحث قضية لويس السادس عشر ، فوقف منها موقفا فى غاية الاعتدال وتوخى العدالة القانونية ، ورأى أن الحكمة تقتضى عدم السير فى اجراءات اعدام الملك . بل انه صرح دون مواردبة أنه ضد عقوبة الاعدام عموما ، وقال « ان الغاء عقوبة الاعدام من أنجع الوسائل لرقى الجنس البشرى لأن هذا الالغاء يقضى على الميول الوحشية التى انتقصت من قيمة الانسان خلال أجيال عديدة » . ولكن مجلس الثورة لم يأخذ برأيه ، وأعدم الملك لويس السادس عشر وزوجته ماري انطوانيت بالمقصلة . كما أن الدستور الذى اشترك فى وضع قواعده الأساسية أدخلت عليه تعديلات كثيرة غيرت معاملة ، فهاجمه كوندورسيه بعد أن تمت الموافقة عليه ، وصرح بأن « ارادة الشعب الحقيقية يجب أن تحترم ، وأن من الخيانة للشعب أن نعتقد أنه غير قادر على اجراء انتخابات مباشرة حرة . كما أن الدستور الذى لا يعطى ضمانات للحريات المدنية يعتبر بلا شك دستورا معيبا » .

وكانت هذه الملاحظات التى أبداهها كوندورسيه على

الدستور والتي تعبر عن ضمير الشعب وتنبعث عن فهم واع للديموقراطية الأصيلة - كانت هذه الملاحظات سبباً في اصدار الأمر بالقبض عليه . ولكنه كان قد احتاط للأمر واختبأ في منزل مدام فرنيه Mme Vernet وهي من أصدقاء أسرته .

وفي سجنه الاختياري هذا شغل كوندورسيه نفسه بعمل كبير طالما طلب اليه أصدقاؤه أن يقوم به ، وهو كتابة تاريخ تطور البشرية . فانصرف الى هذا العمل الضخم في ديسمبر ١٧٩٣ ، وانتهى منه في مارس ١٧٩٤ وجعل عنوانه « مخطط للوحة تاريخية عن ضروب التقدم التي أحرزها العقل البشرى » (٢) .

وهو المؤلف الذي نقوم بعرضه وتحليله في هذا البحث .

ويعبر هذا المؤلف عن ثقة لا حد لها في مستقبل البشرية ، وهو أمر يثير الدهشة اذا تذكرنا أن كوندورسيه قد كتبه وهو تحت وطأة الحكم بالاعدام الذي صدر ضده . ففوق استعرض فيه بعين فاحصة الحالات الماضية والحالة المستقبلية التي بدا له أن المجتمعات الانسانية تسير اليها ، ونجح في أن يبعد عن ذهنه شبح الأفكار التشاؤمية التي

---

Esquisse d'un tableau historique des progrès  
de l'Esprit human.

بعثتها فى نفسه أحداث فرنسا فى ذلك الوقت ولم يظهر  
فى كتابته أى أثر لحالة العزلة التى اضطرت إليها ،  
ولا أى كلمة تنم عن الشكوى مما آل إليه مصيره • بل كان  
المجال كله خالصا للعقل الهادئ المتزن ، والنظرات  
الفلسفية الشاملة ، والمشاعر النبيلة التى تؤمن بالرسالة  
الحضارية للانسان • لقد لخص كوندورسيه رأيه فى  
مستقبل البشرية بقوله • « كل الظواهر تدل على أننا على  
أبواب عصر سيحقق ثورة من أكبر الثورات التى حدثت  
فى حياة النوع الانسانى • وتضمن لنا الحالة الراهنة  
للمعارف الانسانية أن هذه الثورة ستحقق السعادة  
لل البشرية » •

وعندما انتهى كوندورسيه من كتابة هذا المؤلف  
بدأ يساوره الخوف من أن تكون اقامته عند مدام فرنيه  
سببا فى جلب الايذاء له • فخرج من عندها ذات صباح ،  
رغم رقابتها الشديدة لمنعه من القيام بهذه المحاولة ، واتجه  
الى ضاحية « فونتنى أو روز Fontenay-aux-Roses »  
حيث يقطن أحد أصدقائه القدامى • ولكن هذا الصديق  
لم يقبله عنده أكثر من أربع وعشرين ساعة • وخرج  
كوندورسيه مرة أخرى الى الشارع واحتفى فى أحد  
المحاجر فى سهل مونروج Montrouge وكان لا يخرج  
منه الا ليلا • ثم اضطره الجوع والجرح الذى أصابه فى  
ساقه الى الخروج يوما بعد الظهر ، ودخل الى أحد المطاعم  
حيث طلب غداء لا يتفق مع هيئته الزرية ، فارتابت

صاحبة المطعم فى أمره ، وأبلغت عنه سلطات الأمن ،  
فقبض عليه وسيق الى السجن .

وعندما فتح الحراس فى الصباح أبواب زنزانته  
لاستجوابه وجدوه جثة هامدة ، اذ كان قد تجرع جرعه  
قوية من السم مخبأة فى أحد خواتمه وبهذه النهاية المحزنة  
انتهت حياة ذلك المفكر الذى آمن بخير البشرية فى  
المستقبل ، وهى تذكرنا بنهاية سقراط الذى كان أول  
من أرسى دعائم الخير على المعرفة .

وكانت وفاة كوندورسييه فى يوم ٨ ابريل  
عام ١٧٩٤ .

### مؤلفاته :

اذا تركنا جانبا ما كتبه كوندورسييه فى الرياضيات  
فانه يمكن تصنيف مؤلفاته فى ثلاثة أقسام رئيسية :

القسم الأول ويشمل المؤلفات التاريخية والتى تحوى  
سجل حياة بعض العظماء - والقسم الثانى يتضمن  
المؤلفات السياسية والاجتماعية - والقسم الثالث وهو  
يحتوى على المؤلفات ذات الطابع الفلسفى الصرف .

وقد يكون هذا التصنيف ناقصا أو تعسفيا اذ أن  
بعض كتابات كوندورسييه قد يصعب ادخالها فى أى من

هذه الأقسام • ولكن تبرره ، على أى حال ، رغبة الباحث  
فى تحليل آرائه على أساس منهجى •

أما القسم الأول : فيحتوى أولا على المقالات التى  
كتبها فى « تخليد » ذكرى بعض شخصيات عصره من  
الفلاسفة والعلماء • وهذه التمجيدات Les Eloges  
كثيرة تبلغ حوالى الثمانين مقالا وتمتد من عام ١٧٧٢ الى  
عام ١٧٩١ • ومن أشهر الشخصيات التى مجدها :  
بسكال ، ولينييه ، ودالمير ، وتورجو • ولم يتبع كوندورسيه  
فى كتابة تمجيداته الأسلوب التقليدى الذى يقتصر على  
المديح وذكر المناقب ، اذ أنه لم يتردد فى النقد وإبداء  
التحفظات اذا وجد أن آراء من يكتب عنهم تستدعى ذلك •  
فمثلا بالنسبة لبسكال يعجب كوندورسيه أيا ما اعجاب  
بمواعبه العلمية ، وصفاته الخلقية ، ويشيد بأسلوبه •  
ولكنه يرى أن تعلقه المتعصب بالعقيدة والشعائر  
الكاثوليكية قد حال بينه أحيانا وبين انماء فكرته والوصول  
بها الى غايتها الطبيعية • ومما قاله فى هذا الصدد  
« أن بسكال كان معاصرا لديكارت ولكن لم يكن له ، مع  
ذلك ، أى نصيب فى تقدم الفلسفة • ونستطيع أن نجد  
فى اختلاف صفات كل منهما السبب الذى منع بسكال من  
أن يسهم فى تلك الثورة الفلسفية الكبرى التى أثارها  
ديكارت فى العقول ، وأصبحت إحدى دعائم الجنس  
البشرى لتحقيق السعادة ، اذا كان تحقيق السعادة ممكنا ،  
لقد كان كل من بسكال وديكارت عالما كبيرا فى الهندسة ،

وكانت لهما مواهب متكافئة ، ومع ذلك فان طريقة كل منهما فى النظر اى الفلسفة كانت تتعارض مع طريقة الآخر . فكان ديكارت يحتقر الأفكار التقليدية ، ولذا بدأ باطراحها جميعا ، وأحل محلها الأفكار التى استوحاها من تأملاته الفلسفية . أما بسكال فكان على العكس مليئا بالاحترام للأفكار التقليدية التى رسخت فى الأذهان مع الزمن ولم يكن يتركها الا حينما تجبره على ذلك البدهة ذاتها . وكان يخاف من الغلو فى الثقة بالعلوم ، ومن الاهتمام بتعميقها حتى لا تعتقد العقول الطيبة أن العلوم هى وحدها الجديرة بالعناية وأن الناس يجب ألا يسيرون فى حياتهم الا على هدى التجربة الحسية والحساب الدقيق » .

توضح لنا هذه العبارات وغيرها كيف كان كوندورسيه يفهم فكرة « التمجيد » ، اذ كان يجعل منه تاريخا نقديا حافلا بوجهات النظر المتعددة التى تمتع القارئ وتبعده عن السام .

ونضيف الى « التمجيدات » سير الحياة التى كتبها ، وأهمها ، حياة تورجو ، وحياة فولتير ، وبالنسبة لهذا الأخير أراد كوندورسيه بصفة خاصة أن يعرفه للناس على حقيقته ويجعلهم يحبونه وتشهد بذلك الخاتمة التى قال فيها . « لقد كان اعجاب الناس بفولتير أكثر من معرفتهم به . ولكننا نرى أن السم الزعاف الذى كان يسرى



فى بعض كتاباته السياسية ، لا يمنع من وجود عاطفة نبيلة ، وطيبة أصيلة تسيطر دائما على نشاطه . لقد كان فولتير يحب التعساء أكثر مما كان يكره أعداءه . ولم يكن حب الشهرة لديه إلا خاضعا لعاطفة أكثر نبلا وهى حب الانسانية . ولا يوجد من أمثال فولتير إلا القليل من الرجال الذين استطاعوا أن يشرفوا حياتهم بأكثر ما يمكن من الأعمال الخالدة ، وأن يدنسوها بأقل ما يمكن من النفاق والملق » .

أما حياة « تورجو » فيبدو أن كتابتها كانت فرصة لكوندورسيه لتثبيت آرائه السياسية ورسم برنامجه للعمل الاجتماعى . ولذا فهى من هذه الناحية ذات أهمية قصوى . ونستطيع أن نجد فيها إشارة لبعض الآراء التى يجيء تفصيلها فيما بعد فى مؤلفه الكبير « مخطط لتقدم العقل البشرى » .

## القسم الثانى :

### الكتابات السياسية والاجتماعية :

تحتل هذه الكتابات جزءا أكبر بكثير مما تحتله الكتابات التاريخية فى المجموعة ، الكاملة لأعمال كوندورسيه ، ومن الطبيعى أن يكون تاريخها فى الحقبة التى اشتغل فيها كوندورسيه ، فى الوظائف العامة ،

أو لعب دورا فى السياسة • ومع ذلك فهناك بعض كتابات من هذا النوع سابقة على تلك الحقبة مثل « خواطر عن أنواع السخرة » ، و « الاحتكار والمحتكر » ، و « خواطر عن التشريع الجنائى (٣) » كما كتب أيضا عن حرية الصحافة •

ولكن من عام ١٧٨٦ الى عام ١٧٩٤ يتميز نشاط كوندورسيه بكتابة عدد كبير من ، الخواطر ، والمقالات ، والأفكار ، والمشروعات ، والأبحاث ، والأحاديث والاختبارات ، والتقارير ، الخ • وكلها تشهد بتنوع الموضوعات التى طرقها ، وبالنشاط العجيب لصاحبها ، وقد ورد منها فى الطبعة الكاملة لمؤلفاته مائة وستة وعشرون بحثا ، ومن ضمنها خمسة بحوث هامة عن تنظيم التعليم العام • ويسرى من خلال هذه البحوث المتنوعة تيار واحد يحمل القارئ على الشعور بأن وراء كل سطر تكمن الرغبة فى المنفعة وتحرى الحقيقة •

أما كتاباته السياسية فلم يكن هناك ما هو أكثر منها بعدا عن روح الفوضى أو « الديماجوجية » وعزوفها عن الصعود عن طريق تملق شعور الجماهير • وقد كرس إحدى مقالاته لفضح أساليب « الديماجوجية » وهى بعنوان:

---

Rtflexious sur les Corvées — Monopole et (٣)  
monopoleur — Réflexions sur la jurisprudence  
criminelle.

« الصديق الحقيقي والصديق الزائف للشعب » (عا ١٧٩١) .  
 ومما جاء فيها : « يبحث ديماجوراس ( ويرمز به الى  
 الديماجوجى أو المهرج السياسى ) بعناية ما هى الاتجاهات  
 التى تروق الغوغاء فيبالغ فيها ، وما هى العواطف  
 الجامعة التى تحرك الشعب فيتملقها . وهو يصفق  
 لأنواع المظالم التى يرتكبها الشعب ، ويبرر ما ينصرف اليه  
 من العنف ، ويبارك عيوبه . وهو يوافق على كل ما يقر له  
 الشعب ، لا فى المجالس الرسمية ( حيث يقف العقلاء له  
 بالمرصاد ، بل وسط حشود الشوارع والأزقة . أما صديق  
 الأمة الحقيقي فهو ، فيلودم Philodème الذى لا يصعد  
 الى المنصة الا ليقدم للشعب نصائح نبيلة ونافعة ، وهو  
 يقول ما يعتقد أنه الحق دون أن يستجدى التصفيق  
 أو الهتاف . واذا كان للشعب آراء خاطئة فانه يحاربها ،  
 واذا اقترف أخطاء فانه يلومه عليها ، بل يجبره ، اذا  
 استطاع على أن يصلحها . وهو قد يتعرض لغضب الشعب ،  
 فى سبيل أن يجنبه اقتراف الجريمة . واذا كان الآخرون  
 يثيرون عواطفه وانفعالاته فان « فيلودم » يبحث عن الوسيلة  
 لتبديد مخاوفه الوهمية وشكوكه السخيفة . وهو يرثى  
 لحال المخدوعين ، ويحتقر المحرضين ، واذا تعرض للوشاية  
 واجهها بتقديم حياته كلها لخدمات جديدة » .

هذه ، بلا شك ، هى صورة كوندورسييه نفسه  
 ويكاد القارى يقطع بهذا الرأى بعد الانطباع الذى يخرج  
 به من قراءة العديد من كتاباته السياسية .

## القسم الثالث :

### مؤلفاته الفلسفية :

تعتبر هذه المؤلفات قليلة نسبيا بالقياس الى النوعين السابقين ، كما يجب أن نفهم كلمة ، فلسفة فى هذا المجال على النحو الذى فهمها به القرن الثامن عشر اذ كانت تدخل فيها ، حتى ذلك الحين بحوث الرياضيات العليا ، والفلك ، والسياسة والاجتماع .

وأول هذه المؤلفات « مقال الاستقبال » فى الأكاديمية الفرنسية . وقد عالج فيه - كما ذكرنا من قبل - طريقة تحقيق الاندماج بين العلوم الأخلاقية ، والعلوم التجريبية .

ويأتى بعد ذلك « المقال عن العلوم الرياضية » ( ١٧٨٦ ) ويحتوى على تاريخ للرياضيات منذ فيثاغورس حتى ، أولر ، Euler ودالمبير ثم يختتم ببعض الآراء عن أهمية الثقافة الرياضية .

ثم المقال عن الفلك وحساب الاحتمالات ، ( ١٧٨٧ ) ،

ويهتم بتوضيح أهمية نيوتن ودي برنوي De Bernouille  
في تاريخ العلوم التحقيقية .

ثم يأتي المؤلف الكبير الذي تتعرض ، في هذا  
البحث ، لتحليله وهو « المخطط لتاريخ تقدم العقل  
البشرى » . وهذا الكتاب يدخل كوندورسيه في عداد  
كبار فلاسفة التاريخ . وهو يقسمه الى عشرة فصول ،  
يكرس كل فصل منها لعصر من عصور الحضارة . ويبدأ  
في الفصل الأول من الاختراعات الساذجة للانسان البدائي  
حتى ينتهى في « الفصل التاسع » الى الكلام عن اكتشافات  
عصره . ويجعل الفصل العاشر والأخير لتنبؤاته عن  
المستقبل ، ويجمع فيه بين دقة المؤرخ ورومانتيكيه  
المتنبى .

ويعتبر كوندورسيه من الفلاسفة الذين يعبرون عن  
روح عصرهم خير تعبير . اذ أنه أبرز في قوة ووضوح  
قيمة الثروة العقلية والفكرية التي تجمعت في القرن  
الثامن عشر ، الذي أطلق عليه بحق - عصر التنوير .  
وتكمن قيمة كتاباته وآرائه في أنها تعطينا صورة  
دقيقة عن هذا العصر بحيث يمكن القول أن كوندورسيه  
يعبر وحده عن فلسفة القرن الثامن عشر بأكمله . وقد  
يتساءل البعض : واين فولتير ، وديدرو ، ومنسكيو ،  
ودالمبير ، وهلفتيوس ، وكوندياك ؟ ألا يعبر هؤلاء أيضا

عن القرن الثامن عشر ؟ حقا ان كلا من هؤلاء يعبر عن جانب أو عن بعض جوانب الحركة الفكرية فى ذلك القرن ، ولكن أحدا منهم لا يعبر عما اشتمل عليه من اتجاهات ، وما اصطرع فيه من أفكار مثلما عبر كوندورسيه .

ولما كان كوندورسيه أحد كبار المشتغلين بالرياضيات فى عصره فقد أولى اهتماما كبيرا لتطبيق المناهج الرياضية على العلوم الأخلاقية . وأطلق على أحد بحوثه الرئيسية فى هذا الميدان اسم « الرياضىة الاجتماعية » *La mathématique Sociale* وهو يطبق فيه مناهج الرياضة على دراسة عدد من المسائل الاجتماعية ، فيحاول أو يعرف مثلا معدل الوفيات فى هذا البلد أو ذاك ، ويربطه بمستوى المعيشة ، ونوع الحرفة ، أو يدرس بعض الأنظمة الانتخابية ليقرر مزايا نظام معين أو عيوب نظام آخر ، أو يدرس نظم التأمين ليحدد نسبة ما يجب أن يدفعه المؤمن عليه .

وهو ينظر الى الانسان أولا بوصفه فردا ، فيحاول أن يحدد بدقة ، مستندا الى الحقائق الثابتة ، تأثير المناخ عليه ، وكذلك تأثير العادات والحرف على معدل الأعمال ، ثم ينتقل بعد ذلك الى دراسة قوانين الحياة الاجتماعية .

وينطوى هذا العلم الجديد ، الذى يجعل من  
كوندورسييه أحد الرواد الأوائل لعلم الاجتماع الحديث ،  
على ثلاثة مبادئ رئيسية وهى :

١ - تحديد الظواهر .

٢ - محاولة تقويمها .

٣ - النتائج التى تستخلص من دراسة هذه  
الظواهر .

وهو يقسم الظواهر الى طائفتين : الظواهر الحقيقية  
أو الواقعية ، وهى التى نلاحظ حدوثها بالفعل ، والظواهر  
الاحتمالية وهى التى يمكن أن نتوقع حدوثها نتيجة لالتقاء  
عناصر متعددة من عناصر الحياة الاجتماعية المتشابكة .

وإذا لوحظت ظاهرة بعينها عدة مرات ، وبدأت لنا  
منطوية على بعض الاختلافات ، فإن هذه الاختلافات  
ترجع ، فى الحقيقة ، الى خطأ فى إحدى الملاحظات . وفى  
هذه الحالة يجب أن نبحث بين هذه الملاحظات عن واحدة  
تكون أكثر اقناعاً لنا بأنها تمثل حقيقة الظاهرة .

اذ لا يوجد ، في أغلب الأمر ، سبب بعينه يجعلنا نتشبت  
بملاحظة دون غيرها .

وقسم كوندورسيه موضوعات الرياضة الاجتماعية  
على النحو الآتي :

## ١ - الانسان :

( أ ) الانسان الفرد .

( ب ) العمليات العقلية الانسانية .

## ٢ - الأشياء :

ارجاع الأشياء الى مقياس مشترك ، باستخدام  
نظرية القيم .

## ٣ - الانسان والأشياء : ويتضمن منهج هذا البحث

( أ ) تحديد الظواهر وتقسيمها الى :

١ - ظواهر ملاحظة

٢ - وظواهر احتمالية .



( ب ) احصاء الظواهر وتصنيفها ومعرفة طرق  
تألفها .

( ج ) تقدير الظواهر للوصول الى القيمة  
الوسطى .

( د ) نتائج الظواهر وإمكانات تطبيقاتها العملية

ومن ناحية دراسة الانسان يرى كوندورسيه أنه  
يتأثر بدرجة حرارة الجو ، وبطبيعة التربة ، وبالفداء ،  
وبالعادات السائدة ، وبالنظم الاجتماعية ويمكن أن نستخدم  
المنهج الرياضى لمعرفة كيف تؤثر هذه العوامل المختلفة على  
طول مدة الحياة وعلى العلاقة بين عدد أفراد كل من الجنسين  
سواء أكان ذلك عند الولادة أو فى طبقات العمر المختلفة ،  
وعلى نسبة الزواج ، وحالات الفردية والتمثل بالقياس الى  
مجموع السكان . ويمكن أيضا معرفة أثر هذه العوامل  
على حالات الوفاة بين الطبقات والحرف المختلفة . ونستطيع  
أن نحاول كذلك معرفة أثر هذه العوامل على القوة  
العضلية وعلى طول الأفراد وأشكالهم ، بل وعلى صفاتهم  
الخلقية .

وفى دراستنا لهذه العوامل يمكن النظر الى تأثير  
كل منها على حدة ، أو الى تأثير طائفة منها مجتمعة . ونرى

هذه الحانة الأخيرة يجب أن نختبر اذا كان تأثير العوامل مجتمعة يختلف عن تأثيرها متفرقة والى أى حد يكون اندماجها سببا فى تخفيف أو مضاعفة ما تحدثه من أثر .

ولا تطلعنا الملاحظة ، مطبيعة الحال ، الا على وجود تلازم بين أحد العوامل باعتباره ، سببا ، وبين الظاهرة الملاحظة على أنها نتيجة ويتعين بعد ذلك أن نحدد ، باستخدام حساب الاحتمالات ، اذا كان يجب أن نعتبر هذا التلازم ناتجا عن قانون ثابت أم لا ، أو بمعنى آخر اذا كانت النتيجة يجب أن تعزى الى السبب الذى نفترضه لها ، أو الى مجرد الصدفة أو وجود سبب آخر مازلنا نجهله .

الأفكار الرئيسية فى « المخطط التاريخى لتقدم العقل البشرى » .

ننصرف الآن الى تحليل المؤلف موضوع بحثنا ، وابرار بعض فقراته الهامة .

يميز كوندرسية بين طريقتين لدراسة الملكات الانسانية . وتتلخص الطريقة الاولى ، كما ذكرنا من

قبل ، فى البحث - بطريق الملاحظة - عن الظواهر العامة وعن قوانين نمو هذه الملكات . أما الطريقة الثانية فتهتم بدراسة العقل البشرى من خلال النتائج التى توصل اليها بنشاطه ، وتحديد المحصلات المادية والمعنوية التى أضافها كل جيل الى الأجيال التى سبقته . أى أننا فى هذه الحالة لا تهمنا دراسة « مكانزم » التفكير فى صورته المجردة in abstracto ، بقدر ما يهمنا معرفة مراحل تطوره الفعلى .

ويمكن القول أن آراء كوندرسيه عن التقدم البشرى قد مهد لها ، فى العصور الحديثة ، عدد من الفلاسفة والمفكرين . فكتب « بسكال » أن « تعاقب البشر خلال القرون الطويلة المتلاحقة يجب أن ينظر اليه كوحدة مستمرة ، تزداد معارفها بصورة مضطردة » . وأعلن « ديكارت » إيمانه بتحقيق الإنسان للكمال . وكذلك كان « بيكون » يؤمن بالتقدم اللانهائى للمعرفة الانسانية . كما كان تفاؤل « ليبنتز » يشتمل على وجود الرغبة المتأصلة والمتصلة فى نفوس جميع الكائنات لتحقيق حالة أفضل .

غير أن واحدة من هذه الفلسفات لم تكن تنطوى على نظرية كاملة للتقدم البشرى بالمعنى الذى وضعه كوندرسيه ، واقتبسه القرن التاسع عشر من بعده .

وتحددت هذه الأفكار الغامضة ، بعض التحديد ، عند « تورجو » اذ كان أول من حاول أن يستخلص من التاريخ فلسفة للتقدم . فكتب فى مقاله الأول عن « التاريخ العالمى » ( ١٧٥٠ ) : « ان النوع البشرى فى مجموعه ، يتعاقب بين الهدوء والحركة ، يسير دائما ، ولو بخطوات بطيئة ، نحو تقدم أعظم » .

فالتقدم اذن « ضرورة » ، أما التدهور أو النكوص فهو « عرض » والتقدم يعبر عن قانون التاريخ نفسه ، على حين أن التدهور يعبر عن الالغاء المؤقت لهذا القانون . وكل جيل من أجيال الانسانية يرتبط ارتباطا وثيقا بالأجيال التى سبقتها ويعتمد عليها . وهذه الحتمية التاريخية هى ضمان التقدم الانسانى .

هذا هو المبدأ الذى يفصله كوندراسيه فى قوة ووضوح لا نظير لهما ، معتمدا على منهج تاريخى صرف . فيقول فى مقدمة مؤلفه :

« هذه اللوحة التى أقدمها تاريخية ، لأنى كونها عن طريق الملاحظات المتتابعة للمجتمعات الانسانية فى العصور المختلفة التى مرت بها . وهى لذلك يجب أن تبرز ترتيب التغيرات ، وتعرض التأثير الذى تحدثه كل حقبة من الزمن فى الحقبة التى تليها ، وتبين على هذا النحو -

من خلال التحولات التي طرأت على النوع البشرى فى  
محاولاته المستمرة لتجديد نفسه - الطريق الذى سلكه ،  
والخطوات التى قطعها للوصول الى « الحقيقة »  
و « السعادة » . وهذه الملاحظات عما كان عليه الانسان  
فى الماضى ، وعما هو عليه اليوم ، سنوصلنا بالضرورة الى  
الوسائل التى من شأنها أن تؤكد أنواع التقدم المنتظرة ،  
وتسرع بتحقيقها وفقا لما تقتضيه طبيعته .

« ذلكم هو الهدف من هذا المؤلف الذى ستكون  
نتيجته الرئيسية أن يوضح - تارة بالوقائع وتارة  
بالاستدلال المنطقى - أنه لم يكن هناك قط أى حد نهائى  
لاكتمال القوى والملكات الانسانية ، وأن التقدم نحو  
الكمال ، بعد أن تحرر من كل قوة تعوقه ، لا يخضع  
الا لعامل لزمان ومدة استمرار الحياة على سطح الأرض .  
ومما لاشك فيه أن من ضروب هذا التقدم ما سيسير  
بسرعة ، ومنها ما سيسير ببطء ، ولكن هذا السير لن يعود  
القهقرى مادامت الأرض تحتل دائما مكانها فى النظام  
الكونى ، ومادامت القوانين العامة لهذا النظام لا تحدث  
على الأرض انقلابا عاما أو تغيرات عميقة لا تسمح للنوع  
البشرى الاحتفاظ بنفس الملكات واستخدامها على النحو  
الذى ينشده . »

« وأول حالات الحضارة التي أمكن ملاحظتها عند النوع البشرى هي حالة مجتمع يتكون من عدد قليل من الأفراد يعيشون على القنص وصيد الأسماك ، ويمارسون فنا بدائيا في صنع بعض الأسلحة البسيطة والأدوات المنزلية ، أو في بناء المساكن أو حفر الكهوف . وكان لكل من هؤلاء الأقوام لغة يتفاهمون بها ، وعدد قليل من الأفكار الخلقية التي يستخلصون منها قواعد عامة للسلوك . وكانوا يعيشون في نظام عائلي ، ويخضعون حياتهم لأعراف عامة تحل لديهم محل القانون . بل ان منهم من كان لديهم شكل بدائي من أشكال الحكومة .

« ولاشك أن حالة القلق التي كان يعيش فيها النوع البشرى ، وصعوبة الحصول على عيشه ، وتعاقب فترات يومه بين العمل المضني ، والراحة المطلقة ، كل ذلك لم يترك لديه فرصة أو فراغا يخلو فيه لأفكاره ويعمل على تنمية ذكائه باستنباط وسائل جديدة . بل ان وسائل اشباع حاجاته ظلت مدة طويلة تخضع للصدفة البحتة ، ولتأثير الفصول المناخية بحيث لم تكن تسمح بظهور اتجاه نحو صناعة تنتقل من جيل إلى جيل . واكتفى كل فرد بأن يحسن مقدرته وكفاءته الذاتية . » وعلى هذا النحو تعين أن تكون أنواع التقدم التي أحرزها النوع البشرى بطيئة جدا في مراحلها الأولى ، ولم يتحقق هذا التقدم الا على فترات متباعدة حين كانت تدفع اليه ظروف قاهرة

ومع ذلك ، نجد أن الانسان بعد أن كان يعتمد على القنصر والصيد وبعض الثمار التي تمنحها الطبيعة ، أصبح في مرحلة تالية يستعين في غذائه بنتاج الحيوانات التي استطاع أن يستأنسها ويحتفظ بها ويكثر من سلالتها ، ثم ما لبث أن أضاف الى هذه الوسيلة فلاحه الأرض ، ولم يعد يكتفى بالثمار أو النباتات التي يلتقطها مصادفة ، بل تعلم بذر البذور ورعايتها بالعمل اليدوي والأدوات البسيطة ، وجمع المحصول واختارته لوقت الحاجة .

« وكانت الملكية في الحالة البدائية قاصرة على الفريسة التي يقتنصها الانسان بنفسه ، وعلى الأسلحة والشباك ، ثم امتدت الى القطيع المستأنس ، وبعد ذلك الى الأرض التي تزرعها الأسرة أو القبيلة . ثم دعا وجود فائض في ناحية ، ونقص في ناحية أخرى الى خلق فكرة « التبادل » ، ومنذ ذلك الحين ازدادت العلاقات الأخلاقية والقانونية تعقيدا .

« وحين توفرت فرصة أكبر للأمن ، وتحقق نوع من الفراغ في فترات منتظمة ، استطاع الانسان أن ينصرف الى التأمل أو على الأقل الى الملاحظة المتتابة . ثم اعتاد بعض الأفراد أن يستبدلوا جزءا من فائض ما يملكون نظير « عمل » يقدمه لهم الغير ، وسمح لهم ذلك بأن يتخففوا ، هم أنفسهم ، من هذا العمل فنشأت بذلك طبقة من الناس لا تصرف وقتها كله في العمل الجسدي الشاق ، وامتدت

رغباتها ائى أبعد من الوفاء بالحاجات المادية • فتقدمت  
الفنون التى كانت معروفة من قبل ، وأدت ملاحظات  
الانسان الأكثر خبرة ، والأكثر مرانا الى خلق فنون جديدة  
وإزداد عدد السكان بقدر ما أصبحت وسائل الحصول  
على العيش أقل صعوبة وأكثر تقدما • وأصبحت الأفتار  
المكتسبة تنتقل وتنتشر بسرعة بين أفراد مجتمع أصبح  
أكثر استقرارا وأكثر تقاربا بفضل نظام الزراعة •

« ويمكن القول أن فجر العلم بدأ يبرز فى ذلك  
الحين ، اذ استطاع الانسان أن يميز نفسه عن الأنواع  
الأخرى من الحيوان ، ولم يعد ، مثلها ، يقتصر لاشباع  
حاجاته على ما تمنحه الطبيعة • وكذلك لم يعد التقدم الذى  
يحزره قاصرا على القدرات الفردية ، بل أصبح ذا طابع  
اجتماعى •

« ثم ما لبثت العلاقات الأكثر اتساعا والأكثر تعقيدا  
أن جعلت الناس يشعرون بضرورة ايجاد وسيلة لنقل  
أفكارهم الى الأفراد الغائبين أو البعيدين ، وتثبيت ما تعيه  
الذاكرة فى صورة أكثر دقة من مجرد النقل الشفوى ،  
وإثبات شروط اتفاق بشكل أكثر تأكيدا من شهادة  
الشهود ، وتحقيق نوع من الالتزام للعادات التى اتفق  
الأفراد على اخضاع سلوكهم لها • فنشأت الحاجة الى  
« الكتابة » ، ويبدو أنها كانت فى بادئ أمرها عبارة عن



نقوش ورسوم توضح السمات البارزة للأشياء ، ثم أخذت تعبر بعد ذلك ، بطريق الاستعارة ، عن الأفكار المعنوية . وأصبحت الكتابة هي فن التعبير ، بعلامة اتفاقية ، عن كل فكرة وكل كلمة . وبالرغم من أن عدد هذه العلاقات محدود ، فقد توصل الانسان لأن يكون منها عددا لا نهاية له من التركيبات اللغوية ، وذلك بعد أن عدل تصميم هذه العلامات ، وجعلها ، بدلا من أن تدل على المعاني ، تعبر عن العناصر البسيطة التي تتكون منها الكلمات . وبذلك نشأت الحروف الهجائية التي حققت خطوة كبيرة في طريق تقدم النوع البشرى » .

ويدعونا كوندورسيه بعد ذلك الى ملاحظة ثلاثة أجزاء متميزة في اللوحة التي يرسمها عن مراحل التقدم :

« ففي الجزء الاول حيث تدل أقوال الرحالة على الحالة الفطرية للنوع البشرى ، كما شاهدوها عند الشعوب المتأخرة ، لا نستطيع الا أن نعتمد على التخمين في تصور المراحل التي مر بها الانسان من حالة الوحشية الى حالة التجمع البسيط مع أقرانه لتأمين حياته وزيادة نسله ، وكيف استطاع بعد ذلك أن يدخل التحسينات على حياته حتى توصل في النهاية الى استخدام اللغة . وهذه

المرحلة الحاسمة الى جانب مبادئ التنظيم الاجتماعى ،  
وبعض الأفكار الخلقية هى التى ميزت الانسان عن  
الحيوانات التى كانت تعيش مثله فى جماعات .

« أما الجزء الثانى فنعتمد فيه على الوقائع التى  
يمدنا بها التاريخ . ولكن يجب أن نختار هذه الوقائع  
بحيث تحقق النظرة الشاملة الى الشعوب المختلفة ، ثم  
نقرب بعضها من بعض ونقارن بينها ونحاول الربط بين  
أجزائها المتناثرة لنستخلص فى النهاية صورة صحيحة  
لتقدم النوع البشرى فى مجموعة .

« أما الجزء الثالث فهو ما يتعلق برسم صورة  
لآمالنا فى المستقبل ، ولأنواع التقدم التى ستحققها الأجيال  
القادمة . وهذه الصورة لاتعتمد على التخمين بل على تتبع  
الأحداث حتى نهايتها ، والاعتماد على القوانين الثابتة التى  
تم الوصول اليها بالفعل . وحينئذ يتضح لنا أن ما قد نعده  
اليوم خيالاً سوف يصبح ممكناً بل ومن السهل تحقيقه .  
كما سيظهر لنا انه بالرغم من النجاح العابر للأساطير  
والأفكار المتسلطة التى تشجع الحكومات الفاسدة على  
بقائها ، لابد وأن تحصل « الحقيقة » وحدها على النصر  
النهائى . وستبدو واضحة كذلك الروابط الوثيقة بين  
تقدم المعارف والاستنارة العقلية من ناحية ، وبين تقدم

الحرية والفضيلة واحترام الحقوق الطبيعية للانسان من ناحية أخرى . » وسنلاحظ أنه في جميع الأزمنة والأمكنة هناك أفكار متسلطة وخرافات تختلف تبعا لدرجة ثقافة الطبقات المختلفة من الناس ، وتبعا لحرفتهم . فإذا كانت الآراء التعسفية التي يتشبث بها الفلاسفة تسيء الى كل تقدم جديد للحقيقة ، فإن الآراء المتسلطة على عقول الطبقات الأقل ثقافة تؤخر انتشار الحقائق التي أصبحت معروفة ، على حين أن الأفكار المسيطرة على عقول بعض الفئات المهنية من ذوى النفوذ والسلطان تشكل عقبات كأداء أمام الحقيقة . هذه هى الأعداء الثلاثة التى يتعين على العقل أن يحاربها بلا هوادة . وهو لا يتغلب عليها ، فى معظم الأحيان ، الا بعد كفاح طويل وشاق . ولذلك فان تاريخ هذا الكفاح ، وتتبع مولد الخرافة وانتصارها ثم سقوطها النهائى سوف يحتل مكانا كبيرا من هذا البحث ، ولن يكون أقل أجزائه أهمية ولا أقلها نفعا .

« والآن هل نستطيع أن نقول اننا وصلنا الى المرحلة التى لا مجال للخوف فيها من وقوع أخطاء جديدة فى حق الانسانية ، أو الرجوع الى الأخطاء القديمة ؟ وهل أصبحنا فى مأمن من أن يعود للظهور نظام فاسد يقدمه لنا « النفاق » ، ويرحب به « الجهل » ، ويباركه « الحماس » الأهوج ؟ وهل نضمن الا تحدث التدويرات الخبيثة صدعا فى صرح الانسانية ، وتسبب لها الشرور ؟ اننا بكل أسف

مازلنا بعيدين عن هذه الغاية • ولذلك فلا ضرر من التعرض  
خلال هذا البحث للوسائل التي كانت تستخدم لخداع  
الشعوب ، أو افسادها ، أو دفعها الى هاوية الذل والفقر •

« وتدل كل الدلائل على أننا قادمون على عصر سيوف  
يشهد أعظم الثورات التي يحققها النوع البشرى • فما الذي  
يهيئ أذهاننا الى ما يجب أن ننتظره منها ؟ وما الذي يكون  
بمثابة الدليل الصادق الذي يقودنا وسط هذه الحركات  
العارمة ؟ هل هناك ما هو أفضل ، في هذا المجال ، من  
عرض تاريخ الثورات السابقة ، التي كانت تمهيدا واعداد  
لثورة الحاسمة الكبرى ؟ أن عصر التنوير الذي نعيش  
فيه يضمن لنا أن هذه الثورة ستكون منطوية على السعادة ،  
ولكن بشرط أن نعرف كيف نستخدمها ونسخر لها كل  
قوانا •

« فلكي لا ندفع ثمننا باهظا في الحصول على السعادة  
التي يعيدها لنا مستقبل البشرية ، ولكي تنتشر هذه  
السعادة بأسرع ما يمكن ، ونعم أكبر عدد من الأفراد  
والجماعات ، ولكي تكون سعادة كاملة فيما نحققه من  
ثمرات ، ألا نجد أننا في حاجة لدراسة تاريخ العقل  
البشرى لتعرف على العقبات التي مازالت تهددنا ، وعلى  
الوسائل التي يمكن استخدامها للتغلب عليها ؟ » •

ونستطيع أن نلاحظ في دراسة كوندورسيه مراحل متميزة تعبر كل مرحلة منها عن سمات أساسية في تقدم العقل البشرى . فيتكلم أولا عن « تجمع أفراد البشر في جماعات وأقوام » وتكوين الأسرة واختراع الأسلحة للدفاع عن النفس ونشأة اللغة ، على نحو ما بينا فيما سبق . ثم ينتقل في المرحلة الثانية الى الكلام عن « حضارة شعوب الرعاة » وظهور فكرة الايمان بالقوى الروحانية ، والاستعانة برصد النجوم الذى أدى الى ظهور علم الفلك . وفي المرحلة الثالثة يتكلم عن « العصر اليونانى حتى عهد الاسكندر » وفى المرحلة الرابعة يتكلم عن « تقدم العلوم منذ تقسيمها فى عهد أرسطو حتى تدهورها فى العصر الوسيط » . وفى المرحلة الخامسة يتكلم عما حققه العقل البشرى من تقدم « منذ ديكارت حتى تكوين الجمهورية فى فرنسا » ثم يكرس الجزء السادس والأخير من دراسته لما يتنبأ به من « أنواع التقدم فى المستقبل » .

وتسيطر على هذه الدراسة فى مراحلها المختلفة فكرة « الحتمية التاريخية والاجتماعية » . غير أن كوندورسيه ينفى أن تكون هذه « الحتمية » عقبة فى التطلع الى مثال أعلى ، بل يرى أنها وحدها تسمح بتصور هذا المثال وبإمكان تحقيقه بطريقة تكون أكثر قربا من اليقين كلما كانت معرفتنا بالماضى والحاضر أكثر وثوقا . واذا لم نصِل

الى درجة اليقين المطلق فاننا نحقق على الأقل احتمالات  
تزداد درجتها بازدياد عدد الملاحظات السابقة ودرجة دقتها .  
« فالملاحظة المحايدة ، والحكم الصائب يكفيان فيلسوف  
التاريخ كما يكفيان عالم الفيزيكا » .

ويضيف كوندرسيه انى الحتمية الاجتماعية فكرة  
توجيه العالم عن طريق « الذكاء الانساني » . وهو يقول :  
« ان تقدم الأخلاق والنظم يعتمد على تقدم المعارف » .  
وهذه الفكرة التى كانت غامضة عند تورجو تظهر عند  
كوندرسيه فى تحديد ووضوح لا يقلان عما جاء بعد ذلك  
عند « أوجست كونت » حين أعلن « قانون الحالات الثلاث ،  
وهو ذلك القانون الذى يفسر أشكال التطور الاجتماعى  
بموقف العقل البشرى ازاء تفسير مشكلات الطبيعة .  
« فمستوى معيشة الانسان ، كما يرى كوندرسيه ، يتحدد  
بقدر تفكيره ، ويستطيع عقله أن يعرف المصائر التى  
تنتظره ، لأن العقل هو فى الحقيقة الذى يحدد هذه  
المصائر » .

وفى تحليل كوندرسيه لما اكتسبه العقل البشرى  
من تقدم فى « مرحلة حضارة الرعاة » يقول :

« عندما أدرك الرعاة بالفطنة مدى الفائدة التى تعود  
عليهم من ملاحظة النجوم ، وأصبح ذلك أحد شواغلهم فى  
سهراتهم الطويلة ، بعد أن أتاحت حياة الرعى لهم ساعات

طويلة من أوقات الفراغ ، أمكن تحقيق تقدم طفيف فى علم الفلك .

« وتأسست فى هذه المرحلة قواعد عبادات منتظمة ، وتهذبت الأفكار الدّاعية الى الايمان بقوى خارقة للطبيعة ، والى جانب ذلك ظهرت فئة من الرؤساء الروحانيين هنا ، أو بعض العائلات المقدسة هناك ، وتكونت منهم طبقة تدعى لنفسها امتيازات ، وتفصل نفسها عن الناس حتى تتمكن من التحكم فيهم . واحتكرت هذه الطبقة لنفسها ممارسة الطب والعلاج ، وعلم الفلك وذلك لكى تجمع فى يديها جميع الوسائل التى تمكنها من السيطرة على العقول ، وحتى لا تترك لها أى فرصة لكشف النقاب عن خداعها ، وكسر الأغلال التى تقيد بها .

« وقد ظل عدد من الشعوب فى هذه الحالة مدة قرون طويلة ، ولم تستطع أن ترتفع بنفسها الى درجات أعلى من التقدم ، بل ان اتصالها بالشعوب الأخرى التى وصلت الى درجة عالية من الحضارة لم يثر فيها حوافز الثورة ، بل اقتصر أثر هذا الاتصال على اكتساب بعض المعارف ، وبعض مستلزمات الصنعة الى جانب عدد كبير من الرذائل ، دون أن ينتزعها من حالة الجمود العقلى .

« وقد يكون من أسباب ذلك تعلق الانسان الطبيعى بالأفكار التى يتلقاها منذ حداثته ، وتمسكه بما درج عليه من عادات بيئته ، وكرهيته الطبيعية لكل نوع من أنواع

التجديد ، هذا الى جانب الكسل الجسمي والعقلي الذى كثيرا ما يتغلب على حب الاستطلاع ، وهو بعد ما زال ضعيفا .  
واذا قيل ان بعض الشعوب قد استطاعت أن تتغلب على أثر هذه العوامل ، فما ذلك الا لأنها تخلصت أولا من أثر الخرافة المسيطرة على العقول ، والتي كان يغذى شعلتها باستمرار رجال الكهنوت .

« وقد امجد بعض الفلاسفة حالة الركود هذه وسموها حالة الطبيعة ، وجعلوا منها مصدر الحكمة والفضيلة ، وانتقدها فلاسفة آخرون أطلقوا عليها حالة الغباء والكسل » .

« وسوف يكون فى هذا البحث محاولة لحل المشكلة المثارة بين الفريقين . فسنرى لماذا لا يلحق بتقدم العقل دائما تقدم للمجتمعات نحو السعادة ، وكيف أن اختلاط الحقائق بالأكاذيب والأفكار المتسلطة قد أفسد الرابطة التى كان يجب أن توجد بين التقدم واستنارة العقل بأنواع المعارف ، وكيف أن هذا التقدم لا يعتمد على سعة الاستنارة بقدر ما يعتمد على صفائها ونقاؤها من الشوائب . وسنرى فى النهاية أن الرذائل التى تعاني منها الشعوب المتحضرة لا يسببها اتساع العلوم والمعارف ، بل تظهر ، على العكس ، عند تدهور هذه العلوم وانحطاطها . فالمعرفة الحقبة أبعد من أن تفسد الانسان ، ولكنها على الأقل تهذبه اذا لم تستطع أن تغيره تماما » .



**العصر اليونانى :** وعندما يتحدث كوندروسيه عن العصر اليونانى يهتم بأثر الفلسفة فى تقدم العقل البشرى وبخاصة فلسفة سقراط ، فيقول :

« ان من القواعد الأولية فى كل فلسفة جيدة هو أن تهتم بتكوين لغة خاصة ودقيقة لكل علم ، بحيث تعبر كل كلمة عن فكرة محددة ، ويؤدى ذلك الى الاحاطة بدقائق الأفكار عن طريق التحليل الصارم . » ولكن اليونان ، على العكس ، قد استغلوا بعض عيوب اللغة العامة فى التلاعب بمعانى الكلمات ، وذلك لكى يحيروا العقول فى أنواع من اللبس ، ويضيعونها فى متاهات بالتعبير بكلمة واحدة عن عدد من الأفكار المختلفة . ومع أن هذه الطريقة قد هيأت نوعا من المرونة للعقول الا أنها استنفدت جهدها فى حل معضلات وهمية . وحين اضطرت « فلسفة الكلمات » هذه ، العقل البشرى لأن يقف طويلا أمام كل عقبة لا يقوى على اجتيازها ، فانها بذلك لم تساعد على تقدمه بطريق مباشر ، وانما مهدت فقط لهذا التقدم .

« وعرفت هذه الفلسفة باسم فلسفة السوفسطائيين . وهى حين تعلقت بمسائل قد يستحيل الوصول الى حلها ، وحين استمالتها عظمة الأشياء دون أن تفكر فيما اذا كان هناك وسيلة لبلوغها ، وحين أرادت أن تؤسس « النظريات » قبل أن تجمع « الوقائع » ، وأن تقدم فلسفة كونية قبل أن تعرف كيف تلاحظ ظواهر هذا الكون – حين أرادت

كل ذلك ، فانها لم تفعل سوى أن اقترفت أخطاء جسيمة ، أدت اى وقف سير الفلسفة وهى ما تزال بعد فى خطواتها الأولى .

« ولذلك فان سقراط ، حين حارب السوفسطائيين ، وقذف ألعبيهم الكلامية بوابل من السخرية ، فقد كان يدعو مواطنيه ، فى الوقت نفسه ، لأن يعودوا بالفلسفة الى الأرض بعد أن كادت تتوه فى السماء . ولم يكن معنى ذلك أنه كان يحتقر الفلك أو الهندسة أو ملاحظة ظواهر الطبيعة ، كما أنه لم يكن يفكر قط فى أن يقتصر العقل البشرى على دراسة الأخلاق وحدها . بل تؤكد ، على العكس ، أن الفضل يرجع الى مدرسته بالذات والى تلاميذه فيما يتصل بتقدم العلوم الرياضية والفيزيائية .

« ولكن سقراط أراد فقط أن ينبه الناس الى أن يقصروا جهودهم على الأشياء التى وضعتها الطبيعة فى متناول عقولهم ، والى أن يثبتوا موضع أقدامهم قبل أن يخطوا خطوة جديدة ، والى أن يدرسوا العالم المحيط بهم قبل أن يندفعوا ، على غير هدى ، الى الفضاء المجهول .

« وكان موت سقراط حدثا هاما فى تاريخ العقل البشرى . اذ أنه أول جريمة ولدت شرارة الحرب بين الفلسفة وبين الخرافة . وقد أعطى حريق المدرسة الفيثاغورية قبلها الانذار لكى تأخذ الفلسفة حذرهما من المظالم التى يقتربها مضطهدو الانسانية . وسوف تظل

الخرافة على الأرض ويظل الاضطهاد طالما ظل هناك رجال  
كهنوت أو ملوك .

« اذ أن رجال الكهنوت أحسوا ، في مرارة ، بأن بعض  
الناس ( وهم الفلاسفة ) يبحثون لتحسين عقولهم بالرجوع  
الى العلل الأولى للأشياء ، ويدركون أثناء هذا البحث سخف  
أسرار الكهنوت وتفاهة طقوسهم . وخافت فئة الكهنوت أن  
يلقن الفلاسفة ما توصلوا اليه من علوم الطبيعة وقوانينها  
الى تلاميذهم ، وأن تنتقل هذه العلوم والمعارف بعد ذلك  
الى كل من يبحث لتثقيف عقله حتى يعطى لشخصيته وزنا  
وقيمة . فاتهم رجال الدين الفلاسفة بالالحاد والتجديف  
فى حق الآلهة حتى يفوتوا عليهم فرصة افهام الشعوب  
حقيقة موقف رجال الدين من تعويقهم عن الوصول الى  
الحقيقة . ومال بعض الفلاسفة الى تجنب الاضطهاد باتخاذ  
موقف وسط ، فلم يلقنوا مبادئهم الا الى أخلص الخالصاء  
من تلاميذهم ، وحجبوا عن الشعب الأفكار التى وجدوا فيها  
مساسا بمعتقداته الراسخة .

### العصور الحديثة :

« تقدم العقل البشرى يبطئه شديد خلال العصر  
الوسيط بفعل التقدم الطبيعى للحضارة ، وذلك لاستيلاء  
الخرافة والأساطير عليه من ناحية ، ولسيادة حكم الطغيان  
الذى شل العقول بسبب الخوف والبؤس من ناحية أخرى .

« ولكن عصر النهضة مهد لانتشار العلوم الانسانية ،  
ذلك الانتشار الذى ما لبث أن بعث العقول من رقادها ،  
وأحدث تقدما سريعا فى الفكر بما يشبه الثورة • وانتقل  
هذا التقدم من بلد الى آخر بشكل يضمن لنا أنه لا بد أن  
يعم ، فى وقت قريب ، الجنس البشرى فى مجموعه •

« وهكذا نرى أنه بعد أن هامت البشرية على وجهها  
فى متاهات الجهل أحقابا طويلة ، وبعد أن تحيرت العقول  
فى نظريات ناقصة أو غامضة ، توصل المفكرون فى النهاية  
الى معرفة الحقوق الطبيعية للانسان ، واستخلاصها من هذه  
الحقيقة الأساسية ، وهى أن الانسان كائن له شعور  
ويستطيع أن يكون احكاما ويكتسب افكارا خلقية •

« ووجدوا أن الابقاء على هذه الحقوق يجب أن يكون  
الهدف الوحيد من اجتماع الناس وتكوينهم للمجتمعات  
السياسية ، وأن التنظيم الاجتماعى يجب أن يكون فى  
ضمان الاحتفاظ بهذه الحقوق مع العدالة التامة فى أوسع  
نطاق ممكن •

« وهكذا قضى على المبدأ القديم الذى كان يقسم الناس  
الى فئتين منفصلتين لا تداخل بينهما : فئة قدر لها أن  
تحكم ، وفئة كتب عليها أن تخضع • الاولى تتسلح بالكذب ،  
والثانية تدافع عن نفسها ضد الخداع والتضليل • وانتهى

الأمر الى الاعتراف بأن للجميع حقا متساويا فى تنوير عقولهم بما يحقق مصالحهم ، ومعرفة جميع الحقائق ، وبأنه لا حق لأى سلطة من السلطات التى اختاروها لتتولى أمورهم فى أن تحجب عنهم أى حقيقة .

« هذه المبادئ الذى اشتهر « لوك » بالدفاع عنها ، وقد وجدت بعد ذلك فى « روسو » خير من ينميتها وينشرها فى قوة ، وهو يستحق المجد لأنه وضعها فى عداد الحقائق التى لا يسمح لأحد لا بنسيانها ولا بمحاربتها . وعلى هذا النحو أصبح الانسان يستطيع أن ينمى قواه ، وأن يحصل على ثمرة جهوده ، وأن يكفى جميع حاجاته بحرية مطلقة . وغدا الصالح العام لكل مجتمع ، لا فى الحد من ممارسة هذه الحقوق ، بل فى الحيلولة ، على العكس دون مساسها .

« على أن ضروب التقدم هذه فى مجالات السياسة والاقتصاد كانت تركز الى قاعدة أساسية من الفلسفة العامة أو الميتافيزيقا بأوسع معانى هذه الكلمة .

« ويعود الفضل الى « ديكارت » فى أنه أرجع الميتافيزيقا الى نطاق العقل ، وذلك حين شعر بأن مسائلها يجب أن تصدر كلها عن حقائق « واضحة » « وأولية » تطلعنا عليها ملاحظة العمليات التى تدور فى عقولنا .

« ثم أخذ « لوك » الخيط الذى وجه به الفلسفة فى نفس الطريق . فبين أن التحليل الدقيق للأفكار ، بارجاعها واحدة بعد أخرى الى أفكار أكثر مباشرة من حيث أصولها ، أو أكثر بساطة من حيث تركيبها ، هو الوسيلة الوحيدة التى تحول بيننا وبين الضياع فى خضم من المعلومات الناقصة ، أو غير المتسقة أو غير المحددة ، وهى تلك المعلومات التى ألقت بها الصدف أمامنا بغير نظام وتلقينها بغير تفكير . وقد أثبت بفضل هذا التحليل نفسه ، أن جميع الأفكار هى نتاج لعمليات يمارسها ذكاؤنا على أنواع المحسوسات التى تلقيناها . أو بمعنى أدق هى تركيبات لهذه المحسوسات تعيدها علينا الذاكرة فى آن واحد ، ولكن بطريقة تمكن الانتباه أو الإدراك الحسى أن يقف أو يقتصر على جزء فقط من هذه المحسوسات المركبة .

« كما استطاع لوك أن يؤكد لنا ، أننا حين نلصق كلمة واحدة بكل فكرة بعد أن نحللها ونحددها ، فأننا نصل الى تذكر هذه الفكرة دائما هى نفسها ، أى مكونة من عناصرها البسيطة ، ومحصورة فى نفس الحدود . وحينئذ نستطيع استخدامها فى عدد من الأحكام دون أن نخشى الوقوع فى الخطأ . وعلى العكس ، اذا لم تكن الكلمات تعبر عن معنى محدد ، فانها تثير أفكارا مختلفة فى العقل الواحد ، وهذا هو المصدر الخصب لأخطائنا . وأخيرا فان لوك كان صاحب الفضل فى أنه وضع حدود الذكاء

الانسانى ، أو بمعنى آخر حدد طبيعة الحقائق الذى يستطيع أن يعرفها العقل ، والموضوعات التى يستطيع أن يشتمل عليها .

« وأصبح هذا المنهج هو منهج الفلاسفة جميعا .  
و حين طبقوه على الأخلاق ، والسياسة ، والاقتصاد ، استطاعوا أن يحققوا تقدم هذه العلوم بنفس الخطوات الثابتة التى حققتها العلوم الطبيعية والتى تتلخص فى ألا نقبل الا الحقائق التى قام عليها البرهان ، وأن تفصل هذه الحقائق عما عداها مما لا زالت موضع الشك أو عدم اليقين ، وأن نوطن أنفسنا على أن نجهل ما لا يمكن معرفته ، وما سيستحيل علينا دائما معرفته . »

« وحينما حققت العلوم الانسانية هذه الخطوة استطاعت أن تحارب بكل قوة وعزم جرائم التعصب والطفيان ، وتعقبت فى نطاق الدين ، والادارة ، والأخلاق ، والقوانين كل ما يحمل طابع الظلم ، والقسوة ، والوحشية ، وأطلقت صيحتها فى سبيل اعلاء هذه المبادئ الثلاثة : العقل ، والتسامح ، والانسانية . »

مستقبل البشرية :

يعبر كوندرسيه عن مستقبل البشرية بمثال أعلى ذى ثلاث شعب : عالمية ، واجتماعية ، وأخلاقية . فيقول :

« ان آمالنا عن الحالة المستقبلية للنوع البشرى يمكن تلخيصها فى هذه النقط الثلاثة الرئيسية : القضاء على عدم المساواة بين الدول ، وتقديم فكرة المساواة بين أفراد شعب واحد ، وأخيرا التحسن الخلقى للانسان . »

« ومن حسن الطالع أن عدم المساواة بين الدول قد أخذ يختفى فعلا ، وأن الاتصال بين الدول عن طريق التجارة وغيرها قد أتاح لمبادئ الاستقلال والحرية أن تتغلغل الى أبعد المناطق فى آسيا وأفريقيا . وستغمر العالم كله ، فى وقت قريب ، أنوار العلم والمعرفة وبذلك يختفى كل أثر للاستغلال . وحينئذ تحين اللحظة التى نرقبها حين لا تضىء الشمس على الأرض الا لأناس أحرار ، لا يعترفون بسلطان غير سلطان العقل » . »

« أما من حيث عدم المساواة بين الأفراد داخل نطاق دولة واحدة ، فهو ذو ثلاثة أوجه : عدم مساواة فى الثروة ، وعدم مساواة فى الحالة الاجتماعية ، وعدم مساواة فى التعليم » . »

ولا يعتقد كوندورسيه ، أو يرى ممكنا أو مرغوبا فيه أن تختفى كل هذه الظواهر تماما ، ويقول فى ذلك :



« اننا اذا حاولنا أن نقضى على هذه الظواهر قضاء مبرما ، فسنتفتح الباب لمصادر أخرى لعدم المساواة أشد خطرا ، وسنوجه الى حقوق الناس ضربات أكثر مباشرة وأبلغ ضررا » .

ولكن مع ذلك يعتقد أن عدم المساواة ، فى هذه المجالات الثلاثة ، فى طريقه الى التناقص المستمر ، وأن السير فى هذا الاتجاه لابد أن يزداد سرعة على مر الزمن .  
فالثروات تتجه طبيعيا نحو التقارب ، ولا شك أن التشريعات الحكيمة فى مجال الصناعة والتجارة ، ووضع نظام ضرائبى عادل ، واصلاح قوانين الأحوال الشخصية ، ومحاربة العادات الضارة ، كل ذلك سيقوى الاتجاه نحو العدالة الاجتماعية .

« أما من حيث عدم المساواة فى التعليم ، فالقضاء عليه من أسهل الأمور . فعن طريق الاختيار الصالح لأنواع المعرفة ، وللمناهج الملائمة لتعليمها ، يمكن تثقيف جمهور الشعب فى مجموعه بما يحتاج كل انسان لمعرفته لكي يحسن ادارة بيته وعمله ، وتنمية قدراته ومواهبه ، ولمعرفة حقوقه وواجباته ، وأخيرا لكي لا يشعر بأنه غريب على المشاعر السامية التى تشرق الطبيعية الانسانية . وخلاصة القول أن التعليم يجب أن يكون لخلق انسان حر ، سيد لنفسه ، بحيث يستطيع أن يتجنب أخطار الأفكار المتسلطة والانفعالات الجامحة » .

وهكذا يعتقد كوندرسيه اعتقادا راسخا أن انسان  
المستقبل سيكون أقوى ، وأسعد ، وأكثر ذكاء من انسان  
اليوم . وأن الفيلسوف الذى يتالم اليوم من الأخطاء  
والجرائم وأنواع المظالم التى مازالت تلتطخ سطح الأرض  
سوف يجد العزاء فى مشهد لوحة البشرية المستقبلية التى  
ستكون متحررة من كل هذه القيود التى ترسف فيها  
اليوم ، متغلبة على كل العوامل التى تعوق التقدم ، وسائرة  
بخطى ثابتة فى طريق « الحقيقة » و « الفضيلة » ،  
و « السعادة » .

---

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٨٩١

ISBN — 977 — 01 — 4398 — 7



# مكتبة الأسرة



مطابع  
الهيئة المصرية العامة  
للكتاب



بمناسبة  
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

علي مولا